

أنثروبولوجيا الاستعمار في مرآة الفكر الإسلامي المعاصر

أ.د. الأخضر شريط

مدير مخبر مشكلات الحضارة والتاريخ

جامعة الجزائر 2

يهدف هذا البحث إلى عرض جملة من أفكار انتروبولوجيين معاصرين في ميادين مختلفة من ميادين الدراسة الخاصة بأبناء المستعمرات في العالم الإسلامي ومن هؤلاء الانتروبولوجيين نذكر أفكار كل من جاردان في كتابه ورقلة Ouargla وصاحب كتاب تامسنة Nicolas Francis Tamesna¹ وكلود ليفي ستراوس³ Claude levis Strauss في كتابه العرق والتاريخ. La race et l'histoire. وهي أفكار علمية لأنها تعتمد على المنهجية العلمية في الطرح كما أنها أفكار هادفة.

- والهدف الثاني من هذه الدراسة هو تبيان مواطن القوة ومواطن الضعف في هذه الدراسات بالاعتماد على كتابات هؤلاء الأنثروبولوجيين من جهة. ومن جهة أخرى، بالاعتماد على مفكري الفكر الإسلامي المعاصر، وبالتالي أهم الملاحظات التي انتبهوا إليها في تلك الدراسات. ومن ثمة يمكن توجيهه الطلبة والباحثين في هذا النوع من الدراسات إلى الاهتمام بهذا التوجه الذي يمثل البناء الحضاري للأمة،

لأنه ينقب عما يجرها من نومها علميا. وعلى هذا الأساس يمكن طرح إشكالية البحث على النحو التالي: إلى أي مدى وفق المفكرون المعاصرون من العالم الاسلامي للتصدي بالنقد والتمحيص لعمل انتروبولوجيا الاستعمار؟ وللإجابة على هذه الاشكالية سوف نعتمد في بحثنا هذا الخطوات التالية:

- عرض لأفكار بعض الانتروبولوجيين .

1- نموذج من بعض الدراسات الانثروبولوجية على الطوارق والافتراءات العنصرية

2- نموذج اتنوغرافي من كتاب ورقلة ، لجاردن موريس.

3- عرض مختصر لأفكار كلود ليفي ستراوس في كتابه العرق والتاريخ .

خلاصة نتائج البحث .

- أولا الفكر الأنثروبولوجي المفهوم والنشأة .

بداية يمكن اعتبار أن البواكير الأولى لعلم الانتروبولوجيا تعود إلى عصر النهضة الأوروبي⁴ حيث تبين أن الانسان لا بد له وأن يدرس من جانبه التاريخي، بمعنى من الجانب الذي يهتم بالسلالات البشرية. لكن فكرة الاهتمام بالأنساب والأصهار وبصفة عامة فكرة السلالات البشرية كانت من اهتمام علماء الفكر العربي الإسلامي، ذلك أنه ومع الفتوحات الإسلامية وانتشار رقعة الإسلام إلى الشعوب الغير عربية كانت سببا كافيا للاهتمام بالعرق. ذلك وكما يقول المستشرق البريطاني هاملتون جيب⁵ H. Guib إن فكرة الشعوبية جعلت من الجغرافية الإسلامية تتصدع على أيام وصول الإسلام إلى بلاد فارس وبلاد التركمان والبربر في شمال افريقيا⁶ وعلى العموم سواء أكان ذلك القول محقا من طرف هذا المستشرق أم غير محق (لأن الأمر لا يهمنا هنا) فإن الأكيد أن فكرة اختلاط العرب بغيرهم من

الشعوب، كان كافيا لحث الباحثين المسلمين للاهتمام بسلالات النوع البشري. وإذا أردنا ان نكون موضوعيين نقول أنه ومع عصر النهضة، فإن الانتقال لهذا الاهتمام كان بسبب عاملين مهمين: العامل الأول هو توجه الدراسات والأبحاث نحو هذا النوع من الدراسات هروبا من إملاءات الكنيسة المسيحية، التي طالما هيمنت على كل مجالات الحياة، هذا الهروب وجد متنفسه في اختيار موضوعات للدراسة بينها وبين سلطان الكنيسة قطيعة. بمعنى لا دخل لها في هذا النوع من الدراسات. ومن هنا عثرنا على جملة من الباحثين والمفكرين المهتمين بهذا.

الأمر الثاني أن تأكيد المنهج الجديد في الدراسات عامة أي المنهج التجريبي الذي جاء من لبنات فرنسيس بيكون وشيع عنه أنه الأب الأول له، كان عاملا مساعدا على الاهتمام أيضا بالأنثروبولوجيا .

لكن الأمر يجد تطوره مع صاحب كتاب الفلسفة الاجتماعية الفرنسي أوغستكونت Auguste Comte وكما يقول شارحه ليفي بريل Lévy-Brühl 1884-1964 فإن كونت تقدم بتلك الفلسفة نتيجة الدراسات التي قام بها الباحثون الرحالة، ومن ذلك كان تأسيسه لهذا النوع من الدراسات بمثابة ابداع جديد فصارت بذلك الظواهر الاجتماعية تليق بالبحث والدراسة، ومن ذلك اعتبروه من واضع علم الاجتماع الحديث.

ثم إن هناك عاملا آخر كان له ثقله على هذا الاكتشاف هو العمل الذي قام به البيولوجي شارل داروين Charles Darwin حيث أن هذا الأخير قدم للعالم كتاب أصل الأنواع، وكتاب أصل الأجناس، واعتبر آنذاك بمثابة اكتشاف جديد في عالم البيولوجيا حيث كان لفكرة التطور أثرها الواضح على كونت وتفكيره لا سيما في قانون الأحوال الثلاثة، واعتباره علم الاجتماع بمثابة علم فيزياء

المجتمع. ولا غرو فلقد كان يسميه بفلسفة فيزياء المجتمع. كما أننا لا ننكر الذين كان لفكرة التطور أثرها الواضح عليهم ومن هؤلاء نذكر سبنسر⁷ Spencer في كتابه التطور الاجتماعي.

وعموما يمكن القول أن فكرة الانتروبولوجيا جاءت من اهتمامات العلماء والباحثين بتأثير من هؤلاء الأقطاب في أوروبا.

ذلك أن علم الاجتماع كان بمثابة الأساس الأول الذي ستتفرع عنه عدة علوم وعدة تخصصات.

وفي الخلاصة فإن كل ما يتخذ من الدراسات الاجتماعية مأوى له، يتفرع عن هذا العلم. وهي تخصصات عديدة لا يسعنا المقام للإتيان عليها. ومما يهمنا تفرع علم الانتروبولوجيا عنه، ومن هنا وجدنا أن الانتروبولوجيا علم يهتم بدراسات سلالة الإنسان من الناحية التاريخية ومن الناحية البيولوجية. ومن الناحية الثقافية. فعندما نقول أن الاهتمام بهذا النوع من الدراسات من الناحية التاريخية يعني بذلك أن علم سلالات الإنسان يتقاطع مع تخصص علمي آخر هو الأركيولوجيا *Archéologie*. وفي هذا الحالة يستفيد العلمان من بعضهما البعض. كما أن هناك تقاطعا له مع تخصص الاثنوجرافية *L'ethnographie* وهو العلم المهتم بدراسة ثقافة الشعوب. ويهتم أيضا بما يعرف بدراسة "الشعوب البدائية" *Peuples Primitifs* من حيث الثقافة والحضارة. وكذلك يستفيد من نتائجها.

والأنثولوجيا *L'ethnologie* وهو العلم الذي يهتم بدراسة أيضا التطورات التي تعرفها الشعوب، على صنفها المتحضرة والشعوب الراكدة. كما تستفيد من نتائجها الانتروبولوجيا أيضا.

واعتباراً من هذا نرى أن التعاريف لهذا التخصص قد تداولته جملة من المدارس، ومنها المدرسة الألمانية والمدرسة الأمريكية والمدرسة الفرنسية والمدرسة السوفياتية. وتعتبر هذه أشهر المدارس التي اهتمت بهذه العلوم. ولكن الملاحظ من خلالها أنها اهتمت بها إبان أواخر القرن التاسع عشر وإبان القرن العشرين (وهذه الفترة التاريخية مهمة لأننا سوف نعود إليها لمعالجة موضوعنا).

قبل الالتزام بتعريف يهمننا كثيراً ما جاء من ذكر للخصائص والصفات التي تميز الأنثروبولوجيا .

لقد كتبت الباحثة الأمريكية م ميد M, Mead⁸ 1901-1979 تقول "نحن نصف الخصائص الإنسانية البيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الأزمان في سائر الأماكن . ونحلل الصفات البيولوجية والثقافية المحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة كما نهتم بوصف وتحليل النظم الاجتماعية والتكنولوجية ونعني أيضاً ببحث الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته. وبصفة عامة فنحن الأنثروبولوجيين نسعى لربط وتفسير نتائج في إطار نظرية التطور أو مفهوم الوحدة النفسية المشتركة بين البشر . إن التخصصات الأنثروبولوجية التي قد تتضارب مع بعضها هي في ذاتها مبعث الحركة والتطور في هذا العلم الجديد. وهي التي تنير الانتباه وتعمل على الابداع والتجديد، هذا وتجدر الإشارة إلى أن جزءاً لا بأس به من عمل الأنثروبولوجيين يوجه نحو القضايا العملية في مجالات الصحة والإدارة والتنمية الاقتصادية ومجالات الحياة الأخرى".⁹

ومن النص السابق هذا نفهم بان ميدان هذا الاختصاص هو الاهتمام بالإنسان من شقيه الطبيعي البيولوجي والثقافي الحضاري. ونلاحظ الثقل الذي تركته نظرية التطور في الباحثين مع هذا القرن.

والباحثة الأمريكية ميد تتكلم على ان الدراسة ليست وحسب وصفية وانما يطبق فيها منهج التحليل والمقارنة من أجل استقراء نتائج. وعليه فالتفسير لأي من الظواهر الثقافية ولأي من التطورات البيولوجية تصب في بوتقة فائدة هذا التخصص .

كما نلاحظ أن العصر الذي أوحى بهذا التخصص بات من قبيل عصر الاستعمار الأوروبي للبلاد المستعمرة.

بالضبط يمكن القول أن التخصص هذا أي الانثروبولوجيا ولد أصلا لدراسة أبناء المستعمرات¹⁰.

وحتى لا تتشعب بنا التعاريف سوف نعتمد التعريف الذي جاء في قاموس الانثروبولوجيا أنها علم دراسة الانسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا. دون أن نقوم بالتأويلات العديدة لهذا التعريف.

ثانيا عرض لأفكار بعض الانثروبولوجيين

أ- نموذج من بعض الدراسات الانثروبولوجية على الطوارق والافتراءات العنصرية

جاء في كتاب تامسنة لنيقولا فرانسيس Nicolas Francis¹¹ لقد استقرت بعض الهجرات العربية بالجنوب الجزائري وذلك ببلاد ما يعرف بـ: "زوى" (شمال التوات وشيئا فشيئا نزلوا نحو توات أين بنوا قصورا، وغرسوا النخيل بالضبط في "جديد". وبعد موت الحاج بوعمامة قائد غرب ورقلة، فإن خليفته سيدي أحمد التوجي غادر الأماكن التي كان يقيم بها القائد، وبعد موت سيدي أحمد فإن العرب أقاموا بها طويلا إلى أن توفي هذا الأخير حيث برح أحفاده نحو أدرار الإفوراس، وعلى إثر القوافل التجارية التي كانت تتم بينهم وبين الأهقار وقامت معركة بعد اللقاء بتين تاغارت 1755 وهامي معالم هذه المعركة:

إن الشيخ سيدي أحمد البخاي (من أم تاجاكنتية) بن الرقادي تزوج بنت صغيرة لسيدي مختار (الشيخ ولد في 1829-1830 وتوفي في 1911 و1912) خلص التوات من الأهقاريين حيث قدم عملا يعد من المعجزات في المعركة. وكان تصالح وقائد الأهقار تحت إمارة سيدي محمد بن عبد الرحمن بن أبو انعام وخلفه محمد الخير الذي أعاد إلى الكونت التي كان على رأسها سيدي المختار الفيء الذي أخذ منه، شريطة أن توقف الكونت تحضيراتا ضد الرازي وأن ينضم إلى قبيلته. وبعد وصوله إلى مبرك رأى الشيخ أن الكونت تتجمع للحرب فأمرها بالعودة عن هذا الأمر. عدا الدرماشاك. (ديرومشاك، إيد أورمشاك)، ياداس (ياديس بن ياديس) والعيد مالك و 7 أو 8 من بني وافي من بينهم سيدي محمد بن الحاج حبيب الله، سيدي مختار بن سيدي علي وعم أبيه : سيدي محمد مع بعض المحاربين. وكان قادة الحملة هم :علي بن عبد الله الديرامشاك وعلي بن الطالب ياسين الياديسي. وهزموا بوادي عين تاغارت مخلفين 70 قتيلا من بينهم 20 من دارمشاك و 20 من ياديس و 20 من أولاد مالك 10 من المستقلين لأولاد الوافي و 2 من أولاد الوافي والابن الأصغر لسيدي وابن السايح السمس.¹²

إن صاحب هذه النظرة الفرنسي فرانسينيكولا (Francis, Nicola) يقدم لنا هذه المعركة التي قادها العرب ضد قبائل من الأهقار من الزاوية التالية:

أولا إنه يرى بأن المعركة قامت لأن العرب قاموا بأعمال لصوصية تمثلت بقطع الطريق للقافلة والاستلاء عليها ثم يقدم أن الخسائر كانت للطرف العربي الذي تولى منهزما وهي ليست من الحقيقة التاريخية في شيء لأن الدليل التاريخي لا يؤكد أن المعارك ماكانت لتقوم إلا من فعل المعامل الاستعماري الذي كان آنذاك قد احتل الجنوب بادئا باحتلال شمال الصحراء كاحتلاله لعين ماضي في سنة 1844 ولتماسين في 1854 لكن مع ذلك كان "سلطة محمد العيد الروحية ، حسب رأي فيليب قوية في الجنوب إذ يمتد

نفوذه إلى جبال الهقار . كان محمد العيد يبتعد عن المسيحيين بغرض المحافظة على سمعته الدينية عند أتباع الطريقة¹³ . هذه الشهادة من فيليب دو لوفريي وهو المؤرخ الفرنسي تؤكد حقيقة جد هامة هي أنه لا يمكن أن تكون الأعمال اللصومية وقطع الطرق سببا في الحرب حسب ادعاء نيكولا. إذ أن الطريقة الصوفية التي كان محمد العيد الذي شيخها وأحد ركاثرها كان يتمتع بالطاعة من أهل الصحراء وكان الرأي هو ما يرى فكيف به تثار حرب بناء على ما ذكر والأمر إليه - كما ادعى نيكولا في كتابه.

وتحت عنوان معتقدات وأديان يسوق جملة من المعتقدات السائدة لدى مجتمع الطوارق والبعض منها ذا طابع عادات وتقاليد والبعض الآخر من الديانة الإسلامية، ومن العادات والتقاليد في هذه النقطة أي المعتقدات المثل الذي يسوقه عن ما يعرف "بخط الرمل". يقول "فبالنسبة لـ Géomancie (egazen) يقيمه لاسيما الأمر عادو الديعاكر منهم وبعض العرب وغالبا ما تكون النساء هن الخبيرات في التعرف على الإشارات على الأرض (awainnaamad) (الذي قالته الأرض). ومن حين لآخر لا "تتكلمن" ومعنى هذا أن الأرواح (الإله) لم يمكنهن من أن يعرفن المستقبل في لحظة معينة.¹⁴

والعمليات هي كالتالي:

نسطر على الرمال صفوف عدد ما من الإشارات ب ظهر الإبهام (العرب يعملون 4 صفوف) ونمحو الإشارات من اليسار نحو اليمين مثنى مثنى حتى يبقى الصف بإشارة واحدة أو بإشارتين حيث نضعهم جانبا مثلا :

= ، ، بالطابق الأول (بقي إشارتين)

= ، بالطابق الثاني (بقيت إشارة واحدة)

ثانيا نسطر من أعلى إلى الأسفل صفيين آخرين من الإشارات ونجري العمل نفسه كما فعلنا في المرة الأولى.....¹⁵

وهذا المثال الذي يسوقه صاحب الكتاب إنما له مغزاه وهو المغزى المتمثل في محاولة منه إلصاق ماهو عادات وتقاليد بالمنطقة بأمر الغيبيات، وكأن الديانة التي يدين بها أهل الطوارق هي بعض من هذا القبيل. لكن التاريخ الثقافي للمنطقة يؤكد وجود هذا النوع من العادات ومن التقاليد ليس خاصا بالطوارق وحسب بل إن له جذوره في التاريخ الطبيعي لكل المنطقة التي عرفت حياة الإنسان والمتناسقة مع الطبيعة الرملية

3 الثقافات.

وعن بعض الأوجه من الحياة الثقافية يورد صاحب كتاب تامسناتام Tamesnatam حيث يلاحظ أنه في الصلاة "أمود". فإن الرجال لا يقيمون واجباتهم أمام النساء. ومعلوم من الدين بأن الإسلام يفصل بين الذكور والإناث لا سيما في الشعائر التعبدية، وذلك حفاظا منه على أن لا تختلط النساء بالرجال. يقول "وبينما يكون الرجال في المسجد (تامزقيدة) لإقامة الصلاة المكتوبة ، فالنساء يصلين بالقرب من الخيمة. وتقام الصلاة بالعربية ، والمسجد عندهم عبارة عن دار كبيرة موسعة من الخشب والقش محاطا على الواجهة بسياج (أفاراف) وهناك مساجد من الحجارة (آير)"¹⁶.

وعن أداء واجب الصيام يرى بأنه ملاحظ عند الشباب فقط دون سواهم وهو حسبه دائما مختصر على البعض من قبائل الطوارق يقول: "كما يؤدي شباب التيقاريقاريو إلى ماجريين الصيام¹⁷. وعن بقية القبائل فلا يلاحظ عليها صوم شبابها إنه لا يذكرها!

التعليم في بلاد الطوارق:

يلاحظ أنه بالمدرسة الابتدائية فإن التلاميذ من البنين والبنات يكونون في خيم منفصل بعضها عن بعض أي أن البنات يتعلمن منفصلات عن البنين، والتعليم عند الإناث غالبا ما يتوقف عند سن 10 أو 12 سنة وإن التعليم عند البنين يمكنه أن يستمر إلى أكثر من ما فوق هذه السن. وهو بهذه الملاحظة لا يقف على الأسباب التي تقف وراء ذلك.

ثم يأتي على ذكر الكتب المستعملة وهو يرى أنها كتب في الدين، ككتاب القرآن الكريم، والبخاري وهو كتاب في الحديث، وكتب أخرى كالمحيلي، والراضين . وفي العدالة (أو الشريعة) المدونة للإمام مالك . الخليل كفايات والطايب لأبي محمد وهو كتاب في السنة .

إن تأثير المدرسين الدينيين لا يظهر إلا لما يقوم عليه "المربط"¹⁸ الذي يكون له أكثر من 20 تلميذا حيث يباشر دروسا له، للكبار، والتي تكون في التربية المدنية أو الثورية أو ببساطة السياسية، أو يقوم من خلالها بعرض للوضع الحالي أو للأحداث في الخارج. وهو يضرب أمثلة على ذلك يقول: ففي الأتارام (أزمزيم) هناك المعلم بانزا وهو سياسي كأحمد المومن في الدينيك، وسيدي عمر الشيخ في العرق الجنوبي الغربي¹⁹.

ثم يقوم بسرد قائمة يصنف من خلالها المرابطين كمدرسين وكرجال في الدين وكسياسيين. ويورد الوضعية المسجلة للمرابطين لسنة 1938 لا نرى داعيا للخوض فيها في هذا البحث. لكنه يصنفها تصنيف لفائدة الاستعمار الفرنسي فمنها العنيف والعصبي والعادي

وهناك مرابطون معلمين في كل من إيجوانجواتن وعند الشيريفن ولدى الشيريفنا لإيخرخين ولدى إيقدالن الشرق ولدى العرب وفي فرع ياديس. لا نرى عرضهم وعرض ما كانوا عليه لأننا في هذه الدراسة نكتفي بالنماذج المذكورة أعلاه.

أما عن أداء الصدقات: فإن بعض المرابطين يعوضون إنتاج تامسوق²⁰ (الصدقات) لصالح الفقراء والبعض الآخر يحتفظ به لبيت المال....

يعين مرابط واحد في كل قبيلة للقيام على أمر الصدقة. فمثلا عند كال أرلال ف، الحسن هو الذي يجمعها من الإيجوانجواتن:....

وإن الصدقة لا بد وأن تعود على القبيلة التي منها أخرجت، فإذا لم تعط للإمام نفسه فإنها تعط لمرباط آخر من قبيلته.

ويبقى رئيس الأماجر نصيب عنده للعابريالسييل .

إن إخراج الصدقات عند قبيلة إيقدالن رأينا سابقا أن القائد أو الشيخ في البعض من القبائل يقوم هو نفسه على جمع الصدقات ليحققه درايم ... في حين وفي مرات أخرى فإن هناك قائمون عليها من فروع القبائل.... وتتخذ الصدقات على كل المنتجين من ما يملك القبائل من مواشي وأموال. في حين إن الإخراج على الحمير والأحصنة غير وارد لأنهم غير منتجين وبالتالي فهم معفيون من الإخراج عنهم .

إحصائيات للمدارس القرآنية ل: 02 أبريل 1939 ولنختصر مثالنا على مقاطعة تامزكاي Tamamskey تاملناستوهو يورد إحصاء للمدارس بمعلميها وتصنيفاتهم أيضا .

2- نموذج اتنوغرافي من كتاب ورقلة ، لجاردن موريس.

الخلفيات الثقافية والروح العنصرية في "ورقلة" (OUARGLA) ²¹.

إن الغرض من هذه الدراسة هو إبراز الخلفيات الثقافية في كتاب ورقلة: OUARGLA وهو الكتاب الذي ألفه بالبربرية موريس جاردان Maurice Jardon وقام بترجمته إلى اللغة الفرنسية ج دي لور J. Delheur هذه الخلفيات من حياة الورقليين في بيوتهم. ومن ما يأكلون. وعن الحرف التقليدية عندهم. وعن الحمار عندهم. وعن الموت بورقلة. وعن ما يجلبون من النخيل. وهي كلها موضوعات تأتي متناسقة في الكتاب الأول مكونة ما يمكن تسميته بـ من الثقافة الورقلية. بمعنى ذاك الجو الذي كان الورقليون يعايشونه.

سوف ننظر في ما إذا كان المؤلف قد رسم هذا الذي اصطلاحنا عليه بـ "الجو" ⁽²²⁾ ربما يعكس نفسية الورقلي أحسن عكس. أو في ما إذا كان هذا الرسم لا يصور الحياة الاجتماعية الثقافية لهم بما فيها من تطابق. وسوف نحلل من حين لآخر الظاهرة التي سوف نقف عليها، مستخدمين الأدوات العلمية لكل من علم النفس وعلم الاجتماع. كما يمكننا في حالات كثيرة العودة إلى التاريخ وبالأخص التاريخ الثقافي لهذه البلدة: ورقلة. (وأما عن موضوعات الكتاب الثاني والذي جاء يحمل عنوان الزواج في ورقلة فإننا سنخصص له بحثا مستقلا لاعتبار المادة التي يحتويها (أكثر من 530 ص)).

يبدأ الكتاب بتقديم من جورج مارسسي Georges MERCIER وهو مطران قديم بالأغواط يشيد فيه بالنصوص البربرية من موريس جاردان وبالترجمة التي كانت وافية من دي لور "دون تقديم أدبي أو أنتوغرافي". -وحسبه - فما يميزانه خطان: هما المثابرة والرزانة. إنه دراسة في لغتها الأصلية. ومن وجهة نظر ودية أخوية وصبورة حياة الورقلي بالمنزل غذاؤه حرفته نخيله حيواناته العائلية حفلات زواجه ... بادر كما يقول -حسب ما جاء في(الموسوعة حول تنمية الشعوب رقم 73) "بحوار مركز حول الإنسان وليس على السلع والتقنيات " وهذا الحوار الصحيح للحياة وللقلب يفترض نجاح التنمية أول حق للشعوب المحرومة من الإرث ومفتاحها تأخذ بتربية الإنسان وبتربيته الروحية والأخلاقية، حيث كل إنسان في العالم يطمح بالشرعية الحياتية أكثر(23) ... وينتهي التقديم مرة أخرى بالإشادة بالمؤلف وبالمترجم كما يأتي على إقحام لمثل يقول أنه عربي يقول هذا المثل عندما يتعلق الأمر بالشقاوة "عندما تزور أعمى أغمض أنت الآخر عينيك "(24) وهي في نهاية المطاف الطريقة الوحيدة كي لا تتحاور علميا لكن بأسى مع مرآتك. وسوف نقف بعض الشيء مع هذا المثل الذي قال عنه أنه عربي وللحقيقة أننا لا نعرف لهذا المثل رسماً سواء أعلق الأمر بالأمثال العربية أو حتى المحلية ثم أنه معروف في الأدب العربي أن لكل مثل مضرب ومعروف أيضاً أن الأخير لا يمكنه أن يكون إلا متناسقا والعادات والتقاليد العربية ومنه فإن هذا المثل لا نجد له رسماً وإنما كان إقحامه هنا إنما كان من قبيل التعرض للأمثال وتوظيفها لأغراض غير الأغراض التي رسمت لها.

في العنوان الموسوم بحياة الورقليين في بيوهم يحاول موريس جاردان أن يقسم المجتمع إلى طبقات التجار هم الملاكين للربح الذي تخنيه التجارة وطبقة أخرى هي الطبقة الغالبة -حسبه - في البلد وهي طبقة العاملون في البساتين ومن هذه الأخيرة تبرز من أبنائها المجندين في الجيش والإداريين وهي الطبقة

التي يسميها أو التي هي جديرة باسم الورقليين، سوف نلاحظ فيما بعد أن هذا التقسيم للمجتمع سوف يكون معتمدا في كل تحليلات صاحب الكتاب والورقليون بالتعريف هم سكان غير عرب، ولربما جاؤوا هكذا ليسقطوا على ورقلة كما سقط "حجر سارتر" يوما ما على البسيطة!⁽²⁵⁾

إن هؤلاء الذين يطلق عليهم صاحبنا اسم الورقليين هم ليسوا عربا ولا حتى مزايين وإنما هما عرق (.....). ومن الغريب أن صاحب الكتاب يقيم أقاويله انطلاقا من عائلة كانت له علاقات متينة بها. يقيم بل ويسقط كل تحليلاته انطلاقا منها هذه العائلة هي عائلة الحاج سايع عبد القادر.

فبعد أن يتمادى في إيفاء التعجبات حول هذا التزايد الرهيب لها، فإنه بالمقابل يقف عند حصاد الموت لهم من دون أن يقف على الأسباب الحقيقية التي كانت دوما تقف وراء ذلك. بل ويختصرها في الفقر والحرمان ولا [يأتي على من تسبب في ذلك. وكأنه لا يرى الأسباب الحقيقية التي تقف وراء نتيجة الحرمان والفقر (والإحصائيات معروفة في ذلك ممكن العودة إلى الأرقام) ⁽²⁶⁾ .

ومما يذكر صاحب الكتاب بخصوص التنشئة الاجتماعية أن المرأة (عائشة) والتي تزوجها الحاج أخيرا كانت "تذهب إلى الأخوات (Les soeurs) وتتعلم عمل الزراي" ⁽²⁷⁾ (M. Jardon, Ouargla, t, J. Delheure ,Fort- national (Algerie), P10. وهنا نفتح قوسا لنقول أن هاته النسوة لا تعلم شيئا فحتى حياكة الزراي تتعلم من الأخوات، عجيب هذا وكأن مهنة الحياكة لم تتوارث عبر الأجيال وللحقيقة نقول أن الحياكة كانت دائما مهنة توارثتها الأجيال عبر العصور ولم تكن يوما ما تراثا أوروبيا حتى تعلمه الأخوات للفتيات الورقليات أو غيرهن لكن صاحبنا كي يبرز موات هذه الأخيرة يرسمها على أنها لا تعلم شيئا⁽²⁸⁾.

وفي الصفحة 12 يصور لنا العيش النكد على لسان محرز (أحد أفراد الحاج) وينس أن يقف على الأسباب الحقيقية التي كانت دائما وراء هذا النوع من العيش ففي نظرنا إنه دائما النتيجة الحتمية لعامل الاستعمار⁽²⁹⁾

بل إن صاحب الكتاب يذهب إلى أبعد من ذلك حين يتدخل في تحليل العلاقة الاجتماعية التي تربط أفراد الأسرة بعضها ببعض فالحب أو التحاب بن أفرادها يقارنه بذلك الذي هو خاص بالآوروبيين وكأن تقاليد هؤلاء القوم هي عينها التقاليد الغربية !

وعندما يأتي على زواج أحد الأبناء فيصور أن عائلة الحاج ترغم الأبناء على ما اختاره الأولياء لزواج الأبناء. ونقول حينئذ أن هذه العادة هي الأخرى لصيقة بالتقاليد وهي من الموروثات التي اعترضت منعرجات التاريخ ليس إلا والدليل على ذلك أننا اليوم نراها تتلاشى ولا يمكنها أن تكون الوجه الحقيقي للورقليين أو لغيرهم . وما هذا فإن الهمز واللمز من صاحب الكتاب تسكن وراءه خلفية ثقافية حين يتأني ليقول "أن البنت الورقلية بإمكانها تغيير رأي عائلتها وهذا لن تجده عند العرب"⁽³⁰⁾. ويسرد بعد ذلك قصة مؤكدة على ذلك. وهنا بوجدنا أن نتوقف قليلا لننظر في هذه الخلفية الثقافية :

أولها أنها تصور للقارئ أن المجتمع الورقلي قسمان عرب وورقليين! كما يحلوا لصاحبنا تسميتهم. والغرض هنا واضح هو تكريس سياسة فرق تسد. هذا أولا.

وثانيا: إن الغرض الآخر هو بث نغرات التفرقة بين أبناء المجتمع الواحد.

وثالثا :إذكاء الروح العنصرية ويتجلى ذلك من خلال هذا المثال الذي صاغ به حكايته.وكأن هؤلاء الآباء⁽³¹⁾ إنما وجدوا بتلك المناطق إلا لهذه الأغراض والكاتب جاردان أحدهم.وفي علمنا فإنه لا يوجد مجتمعين متمايزين في ورقلة بل يوجد مجتمع واحد.

وفي لفظة خاطفة يؤكد على مدى التقاليد المرسخة في الزواج كطلب الرخصة من القايد (caid)⁽³²⁾. وكزيارة الأولياء قبل القران. وبخصوص النقطة الأولى نقول أن طلب الرخصة من "القايد" هو عورة من عورات الحكم الفرنسي، فلقد كان يضايق المواطنين حتى أنه يتدخل في أحوالهم الشخصية ! وأما عن زيارة الأولياء قبل القران فإن هذا كان يرسخ بعناية وبمباركة من سلطات الاحتلال لغرض بل لأغراض لا يسمح هنا المقام لذكرها ولكن الغريب أن صاحبنا ينسى أو يتناسى أن عقود الزواج كانت تتم في المساجد وأغلبيتها لا تعير اهتماما للعقود المدنية (بسبب أنها تحت نير الاحتلال).

و هاهي خلفية ثقافية أخرى يحسن صاحب الكتاب النسيج على أبعادها،ففي مجال العلاقات الاجتماعية وبخصوص الاستعمال اللغوي فإن تقسيما آخر ينشئه لهذه المسألة الثقافية الجد هامة إذ بموجبها يسعى عنوة إلى زرع فتنة التباين الثقافي اللغوي الذي يفترضه بل يختلفه من الذي يسميه: أن بعض المجتمع بورقلة يتكلم ورقلي والبعض الآخر يتكلم عربي ولا نعلم حتى هذه السنة، أن المجتمع هذا له هذه الخاصية أي خاصية التكلم بالورقلية،(بل نقول الأمازيغية المنتشرة بوادي ريغ) وخاصية التكلم بالعربية والذي هو معروف أن المجتمع هذا لا يتكلم سوى لغة واحدة هي العربية. ثم ما هي الورقلية؟ للحقيقة نقول أن ما أطلق عليه بالورقلية لا أثر لها لا في السابق ولا اليوم ولا كانت تكون يوما ما بدليل أن كل أهل ورقلة يتكلمون لغة واحدة هي العربية.والامازيغية (الريغية)³³ قد تكون في شكل اللسان الدارج ففي كل الأوطان توجد مثل هذه الحكاية، أي حكاية الداريجة والفصحى. أما غير

هذا فلا وجود لما دعاه بالورقلية اللهم إلا تواجد لغات أخرى في المعامل البترولية، ولكن هذا اليوم مع التواجد الصناعي. وهذا الذي هو معروف في الجزائر والذي به أن كل الجزائريين جزائريون في أماكن العمل أي في المصانع. واليك النص الذي يؤكد هذه الخلفية عند صاحب الكتاب يقول: "الذي هو معروف عند أهل الدار أن الحاج (وهو هنا نموذجاً يأخذ طابعه التعميمي) لم يذهب إلى المدرسة في صغره غير أنه مع بيعه لمحاصيله الزراعية تعلم بعض الكلمات التي من خلالها يتعامل يعرف العربية لكن لا يتكلمها إلا عندما يكون عند العرب على غرار ذلك فإنه مع أهل الدار والورقليين فإنه يتكلم ورقلية. الرجال فيما بينهم لا يتكلمون الورقلية إلا لما يكونون مع النساء اللاتي لا تعرف العربية بالمنزل: يجبون أن يتكلموا العربية من حين لآخر لكن ليس دائماً." (34)

وفي نفس السياق وحينما يتكلم عن بلخير ومحرز [ص 24] (وهما من عائلة الحاج العائلة النموذجية في الكتاب) فيصور أنهما متعلمين للفرنسية يتقنانهما بقرآن ويكتبان بها. حيث أنها أي الفرنسية تخدمهما. وللحقيقة نقول أن اللغة الفرنسية وإن خدمتهما فإنما كان لها ذلك من أنها لغة المحتل. الشيء الذي يتغاباه صاحب الكتاب، ثم إن اللفتة هذه ملفتة في الكتاب، حيث يعلمانها "للورقليين" (بمفهوم صاحب الكتاب) دون سواهم وهي النظرة العنصرية التي طالما فاخرت بها النزعة الاستعمارية بل نقول التي طالما فاخرت بها فرنسا الحضارة!

ويورد أن الورقليين يخشون من العرب الأكلين لمحاصيلهم هذه: يأتي العرب في الخريف يخيمون بأطراف ورقلة ويأتون على كل ما يصادفونه من محاصيل، سالبوها من مالكيها إذ لا يتبهنون. (35) هذه النظرة للعرب وهذه التفرقة لما يسميه بالورقليين ولما يسميه بالعرب يصور من خلاله النموذج الأول كان مجتهدا، والثاني لا يهتم إلا ترقب وقت القطف حتى يسلب وينهب ما جناه الورقليون وكأن المسألة هي مسألة

عنصرين من البشر: ثم أن هناك عنصرا محببا والآخر ممقوتا، وإن الثاني ليس له سوى السلب والنهب وهي الصورة المشينة التي يريد أن يصل إليها صاحب الكتاب لغرض واحد ووحيد هو بث روح التفرقة وزرع العنصرية بين أبناء المجتمع الواحد وكأن صاحب الكتاب تعلم من الديانة النصرانية هذه الروح. وأيضا كأن هذه الأخيرة كانت دوما وأبدا في خدمة فكرة الاستعمار.

وهناك ألف وألف مثال على هذه الروح الحاقدة التي ييئها هؤلاء الذين يدعون أنهم رجال الدين المسيحي وهم في خدمة الأغراض الاستعمارية. ومن هذه الأمثلة تلك التي يصور فيها في الصفحة 32 أن العرب سارقون للتمر وأن ما يسميهم بالورقليين يجندون عندما يأتي الخريف لحراسة بساتين النخيل. والعرب —حسب رأيه— "هذه الفئران هم السارقون العرب الذين يأتون في الخريف".⁽³⁶⁾ إن جملة كهذه لا تؤهل صاحب الكتاب لا لأن يكون رجل الشارع ناهيك عن أن يكون رجل دين مسيحي بل يحمل رتبة أب في الدين المسيحي لأن المنطق يقول أن السرقة آفة ذميمة لا يتحلى بها جنس عن جنس وإنما هي قسمة مشتركة بين السفلة في الأمم . هذا أولا. وثانيا أن التقسيم للمجتمع الورقلي على هذه القاعدة إنما جاء من قبل بث الفرقة وبث البغضاء والتحاسد بين أبناء ورقلة، وهذا إنما يصور النفسية التي كان عليها هؤلاء المسمون بالباحثين . كما يصور طبيعة العمل الاستعماري حين يتم من تظافر قوى شتى ومن بينهم هنا رجال الدين المسيحي كأن المسيح عليه السلام نصحهم ببث الفرقة وببث الحسد والتباغض، وما نسميه اليوم بالروح العنصرية. لكن المسيح بريء منهم ومن أعمالهم الشيطانية وهو العمل الذي يدخل حسب رأينا في كيد الاستعمار لأن هذا الأخير يمكنه أن تكون له أشكال عديدة كلها تعمل كما قلنا متظافرة معا من أجل غاية، هي تمزيق العلاقات الاجتماعية. وصدق من قال: "ولن نستطيع أن نتفهم عمل الاستعمار إلا ريثما يثير ضجيجا كضجيج الدبابة

والمدفع والطائرة، أما حينما يكون من تدبير فنان أو من عمل قارض فإنه يغيب عن وعينا.."(37). وعلى هذا كانت دوما شاكلة الباحثين على زمان الاستعمار في الجزائر.

إن العمل الاستعماري هنا يتفنن في إعطاء الصورة المشينة للمجتمع بورقلة ويغفل بل ويتغافل وجوده هو نفسه كمبشر بالروح التي يفترض أنها ترفع من قيمة الإنسان ولا تنقص منها. الروح التي جاءت بها فرنسا للجزائر، والتي - كما قيل الروح أو كما يقال - الروح الحضارية لأوروبا !. لكن ومع الأسف إنها الروح الممزقة للمجتمع بورقلة. قد يقول السائل أن الذي تكلم عنه صاحب الكتاب كان حاصلا في المجتمع بورقلة ونحن لا ننكر عليه كلامه هذا ، وإنما ننكر عليه أن يتعلق ما قال بعنصر اجتماعي واحد. ثم هبه موجود لكن رصده وتدوينه بالصيغة التي جاءت في الكتاب إنما كانت من باب ﴿وَلَكِنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (38)

الخلاصة :

أولا أن التباين الثقافي يفرض تباينا في السلوك اليومي لحياة شعب ما. وليكن هذا الشعب كما هو مصور في الكتاب هنا هو الشعب الورقلي.

وثانيا إن السلوك الفردي إنما هو سلوك اجتماعي مربوط بالوتيرة الاجتماعية لهذا المجتمع أو ذاك وهذا صحيح من الناحية الاجتماعية .وبعيدا عن كل هذا أو ذاك فإن نمط المعيشة هو الآخر يفرض تكيفا معيناً مراعيًا للبيئة وللمجتمع الذي تعايشه هاته البيئة أو تلك من أفراد المجتمع. ونحن حينما نقول أن نمط المعيشة - كان للورقليين - هو كذا أو كذا. فإن صاحب الكتاب ينسى بل يتناسى أن الذي آل إليه وضع القوم إنما كان من تدبير ذاك الفنان بل القارض أو القاضم الذي ظل يقرض في

النسيج الاجتماعي للأمة وللأفراد. إنه عمل الاستعمار- (لقد كان يصادر أحسن بل وأجود أنواع التمر من أهلها ويصادر أحسن وأجود الخضروات منهم ليعث بها إلى باريس فكيف بحال القوم يوسمهم الرخاء)، الذي لم يُبق ولم يذر لأهل ورقلة ما يمكنهم من أن يكونوا قوما متحضرين في المأكل وفي المشرب. أعني أن القوم و- حسب تحليل صاحب الكتاب- باتوا يعانون المسغبة. وإن الذي يعاني هذه الحالة الاقتصادية- بفعل "معامل الاستعمار"- كان على أهل الدين المسيحي أن يأخذوا بيديه إلى الحياة الكريمة وأول خطوة كنا نراها لذلك هي:

أولا كان عليهم أن يضعوا مخططا اقتصاديا يكفي لإزالة الغم والمسغبة منهم، عوض التلذذ بوصفها، بل والتفنن في الوصف قصد أغراض تخدم فكرة الاستعمار. ولا يمكنها في شيء أن تخدم بأي حال من الأحوال "المعذبون في الأرض". إنها الرسالة التي كان يفترض أن يكون قد قدمها السيد المسيح. ولكن كأثمهم (أي الآباء البيض) من أولئك القوم الذين ﴿...قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. (39).

وفي موضوع متعلق بالبطالة يقر صاحب الكتاب أنه بعائلة مكونة من عشرة أشخاص أو أكثر، نجد ثلاثة أو أربعة يعملون، بينما البقية تعيش على ظهورهم. (40)

إن هذا الوضع المأساوي لا يعود إلى الورقيلين بحد ذاتهم. وإنما يعود إلى سياسة التفتير والتجهيل التي مارسها فرنسا الحضارة! في مستعمراتها وورقلة إحداها والإحصائيات موجودة ومعروفة لدى الخاص والعام. وربما أحسن حجة في هذا المجال هي: تجمع جل الكتب التاريخية أن الجزائر قبل سنة 1830 كانت تصدر القمح فنتساءل كيف كان لها ذلك والورقليون لا يعملون إلا بهذا العدد القليل من الرجال إن لم نقل الزهيد. نعتقد أن رجال الاقتصاد لا يرون الإنتاج إلا من عمل.

وفي مقام آخر يدخل صاحب الكتاب في تناقض لما كان مع الصفحات السابقة والتي أشرنا إليها لما يجعل من العرب جنس توصم به أدم الصفات ومنها صفة السرقة، بينما حين يتناول البطالة كموضوع له يرى بأنهم مالكون لبساتين النخيل مع "المزابيين" (نسبة إلى سكان وادي ميزاب بغرداية: المدينة الجزائرية) وأما الذين يسميهم الورقليين فهم عمال بما لا ملكية لهم إلا من اليسير. ومن ذلك بعض التجارة. ويكمن الجواب على التساؤل في أن هؤلاء القوم من العرب من جهة هم رحل لا يأتون إلا في الخريف للسرقة، ومن جهة أخرى هم هنا مالكون كبار للنخيل إنه التناقض المنطقي الساطع البرهان. وكان الغرض منه هنا إظهار ما أسماه بالورقليين أنهم شادين على أزهرهم، فبسواعدهم لا يعيشون عيلة على غيرهم في مقام كهذا الذي تكلمنا عليه. وفي مقام آخر كما مر معنا غيرهم (العرب) هم العيلة لأنهم سارقون وناهبون لخيرات الخريف.

وبالمقابل نجدته يتكلم في مقام آخر عن أحد أفراد عائلة الحاج سايح وهو بلخير. فهذا الأخير جدي في عمله (يتمهن حرفة الحدادة) وهو الذي يغطي جميع الحاجبات سواء للورقليين (كما تحلوا له تسميتهم) (أو حتى لغيرهم من العرب) (التقسيم المغرض عنده). وهو على هذه الجدية في العمل لأنه ورقلي⁽⁴¹⁾ أي بربري الأصل كما سبق وأن أشرنا للكلمة حسب فهم صاحب الكتاب).

هذه بعض العينات التي استطعنا رصدتها من الكتاب "ورقلة" لصاحبه جاردان وهو مرسوم بحروف قيل عنها أنها بربرية، وقام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية دولار. والصاحبان معا من الآباء البيض عاش في ورقلة. والعبرة كل العبرة في أن تاريخ الشعب لا يمكن كتابته اعتمادا على هذا النوع من الثقافة ثقافة بث روح الحقد والكراهية في أبناء الأمة الواحدة سواء أكانوا في ورقلة أو في تمنراست أو في العاصمة أو في القبائل أو في تبسة أو في وهران أو في غيرها من دنيا الجزائر.

ويمكن اعتبار الدراسات التي قام بها كلود ليفي ستراوس Claude Lévi-Strauss في المجال الانتوغرافي والمجال النفسي على التوالي في إفريقيا يقول في كتابه عرق وتاريخ Histoire Race et كل الناس يحملون إستثنائيا لغة تقنيات فن معارف من نمط علمي ،معتقدات دينية ، تنظيم اجتماعي اقتصادي وسياسي⁴²

وانطلاقا من هذا فإن الثقافة الغربية تختلف عن الثقافات الأخرى . وهي تبدو أكثر بديهية وطبيعية من الثقافات الأخرى ، ولا يمكننا تخيل ان نعيش بصفة أخرى.⁴³ نحن نعرف بشكل سيئ الثقافات المختلفة عن ثقافتنا وأحيانا لا نعرف أصلا . وحينما نكتشفها تأخذنا ونصدم . وهنا أفتح قوسا لأقول ان ليفي ستروس يريد المجتمعات الغير غربية أن تكون غربية وإلا فهي التي سببت الصراعات التاريخية⁴⁴ كما سنشير إليه ولكنه ينسى بل يتناسى أن التنوع الثقافي شأنه شأن التنوع الطبيعي إنه مكمل لبعضه البعض فهناك منتجات ثقافية ينتجها الشرق لا ينتجها الشرق ولكن هذا الأخير يكون بحاجة إليها والعكس صحيح فكما أن الله أودع في الطبيعة تنوعا ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ كُلُّ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّا فَعَلْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ مِثْقَالَ عَرَقٍ﴾⁴⁵ يجعل منتوجات المحاصيل الزراعية منها مبكرا ومنها متأخرا ومنها فكذلك كانت الثقافات متنوعة وهذا خلف في التاريخ سوء فهم وصراعات كأننا نشهد تصرفات حضيرة إنسانية في أواخر القرن التاسع عشر وهذا التكرير يبرز تظاهرات عنصرية.. وفي نص منشور سنة 1952 ينشر ليفي ستروس نصا يظهر من خلاله ودون مبالاة علاقة الثقافة وعلاقات الثقافات وهل التنوع الثقافي بديهي أم أنه عشوائي ؟

ففي المجال الأول نجد أنه يأخذ بالمنهج المتبع والمعروف في هذا التخصص الدقيق حيث يقيم هذا المنهج على الخطوات التالية:

أولاً: لا بد من الوصف الدقيق لكل صغيرة وكبيرة تتسم بها القبيلة الإفريقية هذا الوصف يأخذ طابع التدوين الأولي، كما يعتبر مرجعية للخطوات الأخرى التي تلي في النهج.

ثانياً إتقان لغة القبيلة: فالتمكن من التكلم بلغة القبيلة المراد دراستها تمكنا جيداً مهم حتى كأن يصبح العالم الدارس يتقن لغة القوم إتقاناً كاملاً.

ثالثاً لا بد من التعرف على عادات وتقاليده وطقوس هذه القبائل: وكي يتسنى للعالم الباحث ذلك لا بد له من معايشة القبيلة المراد دراستها كأن يصبح يأكل كما يأكلون ويلبس كما يلبسون ويقيم الحفلات على النحو الذي يقيمون كما يقيم شعائرهم التعبدية كما يمارسونها وينام ويستيقظ على النحو الذي ينامون ويستيقظون... وهذه وغيرها تفرض على الباحث أن يصبح عنصراً من عناصر أفراد القبيلة بل واحد منهم: لأن الباحث هنا عليه أن لا يكتفي بالوصف وإن كان الوصف خطوة أولى من خطوات هذا المنهج.

وبالجملة فإن العينات التي اعتبرتها دراسات لفي ستراوس كافية لتقديم النتيجة المتمثلة في أن القارة الإفريقية قارة لم تعرف الحضارة إليها سبيلاً تحتاج إلى تحليلات أكثر علمية تعتمد المجهز أكثر بغية تفحص دقيق لها. ومنه فإذا كان هذا الافتراض صحيحاً فالدراسات الغربية تكون قد قدمت صورة علمية متزنة عن شعوب القارة الإفريقية وبالتالي لا بد من مسايرة أجرومية هذه الدراسات لأننا تحملنا

نتائجها. ومنه فإن دراسة الشعوب والقبائل في العالم لا بد وأن يأخذ عموميتها انطلاقاً من هذه الدراسات العلمية!!!

وإذا كانت القبائل الإفريقية ليست حبيسة العينات المدروسة وحسب باعتبار أن هذه العينات لا تكون دائماً هي النموذج المعول عليه في الدراسات العلمية، فمن المحتمل أن هذه القبائل تميزت بحضارة ضاربة في التاريخ، لكنها أصبحت اليوم راكدة. ويؤكد ليفي ستراوس على أن يوصم دراسات هذه الشعوب بالبدائية. ويلاحظ مالك بن نبي لما في هذه التسمية من روح التعالي والعنصرية التي ما يكون لدارس علمي أن يتسم بها. ويرى مالك بن نبي أن هذه الشعوب كانت لها حضارة ثم ولعوارض تاريخية أصبحت راكدة⁴⁶ ولكن لا يمكن وصفها بالبدائية لما في هذه التسمية من روح كما قلنا عنصرية .

ومن هنا وجب النظر أكثر في المعامل الموضوعي الذي على الباحث في الدراسات الأنتوغرافية أن يتمسك به بل وأن يتسلح به. ووجب أيضاً استبعاد العوامل السيكلولوجية في أي دراسة من هذا النوع. ومنه فالمعامل الموضوعي اقتضى هو الآخر التأصيل أكثر من أي وقت مضى لا سيما وأن الروح العلمية تمسك بما بل ودافع عنها كلود برنار. وعليه فالدراسات الأنتوغرافية لا بد إما أن تعيد النظر في المنهج المعتمد لديها أو أن تغير موضوعات دراساتها الشيء الذي من المحتمل أن يبقى هذه الدراسات رهينة العهد الذي وُجدت له.

الهوامش:

(نيقولا فرانسيس N. Francis عالم اتنوغرافيا اهتم بلهجات الطوارق في كل من جنوب المغرب والنيجر وموريطانيا و... غيرها من البلاد التي يمتد بها الطوارق .

(² عنوان الكتاب الكامل هو: Tamesna, les ioullemmeden de l'Est: ou, Touâreg "KelDinniK"

(³) عالم انتروبولوجيا وأنتولوجيا فرنسي يهودي ولد سنة 1908- ببلجيكا وتوفي سنة 2009 من أهم مؤلفاته: عرق وتاريخ. انتروبولوجيا بنيوية، الطوطمية اليوم

(⁴) أنظر ، حسين فهميم ، قصة الانثروبولوجيا ، فصول في تاريخ علم الانسان ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت، 1986، ص 13 .

(⁵ Sir Hamilton R. A. Gibb

ولد هاميلتون جيب في الإسكندرية في 2 يناير 1895م، انتقل إلى اسكتلندا وهو في الخامسة من عمره للدراسة هناك، ولكنه كان يمضي الصيف مع والدته في الإسكندرية. التحق بجامعة أدنبرة لدراسة اللغات السامية، عمل محاضراً في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن عام 1921م وتدرج في المناصب الأكاديمية حتى أصبح أستاذاً للغة العربية عام 1937م، وانتخب لشغل منصب كرسي اللغة العربية بجامعة أكسفورد، انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعمل مديراً لمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد بعد أن عمل أستاذاً للغة العربية في الجامعة .

بالإضافة إلى اهتمامه اللغوي فقد أضاف إلى ذلك الاهتمام بتاريخ الإسلام وانتشاره وقد تأثر بمستشرقين كبار من أمثال تومار سارنولد وغيره.

من أبرز إنتاج جيب (الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطى) سنة 1933م ودراسات في الأدب العربي المعاصر وكتاب (الاتجاهات الحديثة في الإسلام) وشارك في تأليف (إلى أين يتجه الإسلام)، وقد انتقل جيب من دراسة اللغة والآداب والتاريخ إلى دراسة العالم الإسلامي المعاصر وهو ما التفت إليه الاستشراق الأمريكي حينما أنشأ

الدراسات الإقليمية أو دراسات المناطق، وله كتاب بعنوان (المحمدية) ثم أعاد نشره بعنوان (الإسلام) وله كتاب عن الرسول صلى الله عليه وسلم

⁶ (أنظر فكرة الشعوبية ، ها ملتون جيب ، دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة وتحقيق ، زايد ، دار العلم للملايين القاهرة 1964 ص 162.

⁷ (هربت سبينسر فيلسوف واجتماعي انجليزي 1820-1903. أهم مؤلفاته مدخل إلى علم الاجتماع وكتاب الستاتيكية الاجتماعية

⁸ (مرغريتميد : M Mead 1901-1978 أنثروبولوجية أمريكية .

⁹ (M. Mead L'Anthropologie comme science humaine, Payot, traduit de Anthropology, a human science par Élisabeth Le Quéré. 1971. P.280.

¹⁰ (ومما يؤكد كلامنا هذا أن التخصص هذا ولد مع كلوديوس جيمس ريخ الذي ولد يوم 28 مارس 1787 ب ديجون بفرنسا كان شابا يافعا وكان يهتم بدراسة اللغات مثل الاغريقية واللاتينية وأيضا الفارسية ولهجات شرقية أخرى وكان يسافر في كل الشرق الأوسط حتى كسب خبرة في الاركيولوجيا و في الانثروبولوجيا. وفي سنة 1811 اهتم بدراسة بلاد بابل واهتم بدراسة ماعرف بحضارة مابين النهرين أو الميزوسبوتاموس

¹¹ (نيقولا فرنسي انتروبولوجيوأنثوغرافي اهتم بدراسة قبائل التواتوالتوارق على امتدادهم في كل من جنوب المغرب والنيجر وموريتانيا وجنوب الجزائر

¹² Francis, Nicola. Tamesna Imprimerie nationale, Paris, P68-69. -

¹³ (أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، الجزء 4 دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 1998 ص 224

¹⁴ Francis, Nicola. Tamesna. P243

¹⁵ Ibid. P243

¹⁶Ibid,P 245.

¹⁷Ibid,P245.

¹⁸مرابط (بسكون الميم) بالجزائرية: تعني الأشراف وهي من الكلمات التي تحولت عن مدلولها تاريخيا كما سبقته الإشارة، وستكون الكلمة بهذا المعنى مع كامل البحث.

¹⁹أنظر المصدر السابق. Francis, Nicola .Tamesna. ص 246.

²⁰كل خراج باللغة الترقية وتقابل الصدقات والزكاة ...

²¹ورقلة عنوان كتاب ل Maurice Jardon من الآباء البيض بورقلة:وهو اسم مدينة بالجنوب الجزائري.

²² (يعرف مالك بن نبي الثقافة بالجو الذي يعمل على نحت شخصية الفرد...أنظر مشكلة الثقافة،ترجمة عبد الصابر شاهين دار الفكر دمشق 1980 .

²³ (أنظر مقدمة الكتاب التي كانت من جورج مارسبييه وهو مطران قديم بالأغواط ص 1 .

²⁴ (قد يكون المثل هذا أوروبي حيث لا نجد له أثر في الأمثال الجزائرية.

²⁵ (تدعي الوجودية أن الإنسان قذف به في هذا العالم. أنظر تفاصيل ذلك في جون بول سارتر، الوجود والعدم.

²⁶ (يراجع ذلك في كتاب أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي دار الغرب الإسلامي .

²⁷ أنظر M. Jardon,Ouargla, t, J. Delheure ,Fort- national (Algérie),P10

²⁸ (أنظر تفاصيل ذلك، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي.

²⁹ (أنظر تفاصيل أكثر، فرحات عباس، ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، مطبعة فضالة،المحمدية،المغرب

³⁰ (أنظر، M. Jardon,Ouargla, t, J. Delheure ,Fort- national ,P18M. (Algérie),

³¹ (أنظر تفاصيل أكثر في موضوع الحركة التبشيرية في الجزائر في القرن 19 كتاب خديجة بقطاش.

³² (أنظر، M.Jardon,Ouargla,P20،

⁽³³⁾ نسبة لسكان وادي ريغ الذي يمر بالمنطقة.

⁽³⁴⁾ Ibid, P22

⁽³⁵⁾ Ibid, P26

⁽³⁶⁾ Ibid, P32

⁽³⁷⁾ أنظر في هذا مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1980.

⁽³⁸⁾ سورة البقرة آية 119.

⁽³⁹⁾ سورة آل عمران آية 74.

⁽⁴⁰⁾ Ibid., P70

⁽⁴¹⁾ Ibid., P82

⁽⁴²⁾ C. Lévi-Strauss, Race et Histoire,, Editions Gallimard, Paris, 2007

texte 11.

⁽⁴³⁾ Ibid. , P.12.

⁽⁴⁴⁾ Ibid., P.13

⁽⁴⁵⁾ سورة الرعد الآية 4.

⁽⁴⁶⁾ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق 1980 ص 45.

مصادر ومراجع البحث:

أولا :مصادر أساسية في البحث مرتبة حسب الأهمية باللغة الفرنسية

- 1- Nicolas Francis, Tamesna, les ioullemmeden de l'Est : ou, Touâreg "KelDinniK. Imprimerie nationale, Paris 1964
- 2-M. Mead L'Anthropologie comme science humaine, Payot, traduit de Anthropologie, a humanscience par Élisabeth Le Quéré. 19 M..
- 3-Jardon, Ouargla, t, J. Delheure ,Fort- national (Algérie)
- 4-Herbert Spencer, un évolutionniste contre l'étatisme, Les BellesLettres, 2007..

5- C. Lévi-Strauss, *Race et Histoire*, Editions Gallimard, Paris, 2007 texte 11.

ثانيا: مصادر ومراجع باللغة العربية

- 6- حسين فهميم ، قصة الأنثروبولوجيا ، فصول في تاريخ علم الانسان ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت، 1986.
- 7- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، 1830-1954، الجزء 4 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 1998.
- 8- مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق 1984 .
- 9-مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع وشبكة العلاقات الاجتماعية ،ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق 1983.
- 10-فرحات عباس، ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.
- 11-هاملتون جيب ، دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة وتحقيق عباس نجم زايد، دار العلم للملايين، 1964.